# في الحاجة إلى تجديد الخطاب الإسلامي

مجمد بنصالح

يعد تجديد الخطاب الإسلامي من دعائم البناء الحضاري الإسلامي ومن شروط الانفتاح الواعي على النماذج الحضارية والأنساق الثقافية المختلفة إعماراً للأرض وإعلاءً لصروح الحضارة وتعزيزاً للمشترك الإنساني. ولقد أكدت التجربة التاريخية الإسلامية أنه كلما استندت المحاولات التجديدية إلى أسس مرجعية ومنهجية مستمدة من الوحي الإلهي، حققت غاياتها وبلغت أهدافها ومراميها. ذلك أن التفاعل مع الوحي المرشد والمسدِّد بمنهاج الاستمداد الموفق بين النقل والعقل والواقع، هو الضمانة الحقيقية لنجاح كل محاولة تتغيا تجديد الخطاب الإسلامي الموجه بالآيات القرآنية والكونية والباني للإنسان والحضارة الإنسانية. ولهذا كانت الآيات في القرآن الكريم (كتاب الله المسطور) كالآيات في الكون (كتاب الله المنظور) تدل إحداهما على الأخرى وتحفّز الإنسان على البذل والعطاء في ظل قيم البرّ والإنماء، والمودّة والصفاء باعتبار المجالين، مجال القرآن ومجال العمران هما للإنسان، يتزوّد من الأول قيم الهداية والرشاد ويسعى في الثاني لإشادة نماذج في الحضارة والثقافة والفنون والصناعات والعلوم والآداب.

وإذا كانت طبيعة هذه الأصول، حافزة على الفعل، دافعة إلى الإبداع داخل الدائرة الإنسانية المشتركة، حيث الخطاب القرآني خطاب للإنسان حيثما كان وحيث الكون مجال استخلاف هذا الإنسان، فإن التجلي الأول لهذا النموذج من البناء الحضاري الإسلامي في عصور الإسلام المزدهرة قد كشف إمكانات هائلة لهذا الامتزاج والتداخل والتكامل والتواصل بين القيم الحضارية والإنسانية المشتركة، وعن إمكانات العقل المسلم وقدراته في الإبداع العلمي في مختلف الحقول والمجالات. لكن الناظر إلى العصور المتأخرة، يلحظ أن ثمّة ضموراً كبيراً في هذا المجال، ونكوصاً وتراجعاً خطيراً عن عطاءات النموذج الأول. ولا خلاف في أن مرجع ذلك ليس إلى الأصول نفسها وإنما إلى طبيعة الفكر والنظر التي طرأت عليها وسائط وحالت دون استمدادها القوي حوائل متعدّدة، فلم تعد قدرتها على العطاء كما كانت.

إنه بتعبير آخر، الفرق بين الخطاب الإسلامي قديماً الذي كانت له استجابة كبرى للتحديات المعاصرة لزمانه، من خلال اتصاله الحيّ بأصول الفكر ومصادر المعرفة وانفتاحه على الأنساق الثقافية الأخرى، وبين الخطاب الإسلامي الحديث والمعاصر الذي استجاب للحظات ونداءات الجمود والركود والتقليد

والمحلية أكثر من استجابته لنداء الأصول وانتباهه إلى إرشاد الآيات المبثوثة في النصوص والأنفس والآفاق.

لقد كان للانفصال التدريجي للفكر والعلوم والمعارف، وللقيم والسلوك والأخلاق عن مصدر الإلهام والانبثاق الأول تداعيات كثيرة، أدت بكثير من الناس-سواء عن وعي أم عن غير وعي- إلى إحلال الفكر النسبي البشري محل الوحي المطلق، وإلى جعل التحيزات الضيقة والتصنيفات المفرقة حاكمة ومهيمنة، كما أدى التقليد والتكرار إلى إهمال ملكة الإبداع والابتكار في العقل المسلم وجعله مجرد أداة لنقل الصور والنماذج الجاهزة من الماضي أو الحاضر من غير نظر وتدقيق ولا فحص وتمحيص. وحلت بذلك أبواب التأثر ومداخل الاستلاب للأفكار والمفاهيم الوافدة التي بدأت تصوغ في عالمنا نموذجاً آخر في الثقافة والمعرفة والسلوك من خلال تحيّزها لنموذجها الخاص على حساب المشترك الإنساني وقيم الحوار والتواصل الديني والثقافي والحضاري.

ولذلك، بات من الملحّ اليوم في سياق التحوّلات الكبرى التي يعرفها العالم العربي الإسلامي، وحتى يواكب الفكرُ والخطابُ الحراكَ الاجتماعي الذي أفرز الربيع العربي، أن نولي عظيم العناية والاهتمام لتجديد الخطاب الإسلامي بما يجعله مرتبطاً بالأصل ومنفتحاً على العصر، وهذا ما لن يتأتى إلا بالاعتراف بمكامن ضعفه ومواطن نقصه، فتجديد الفكر والخطاب لا يمكن إلا بمعرفة عميقة وعلاجات دقيقة لعناصر العجز والوهن فيه، وبأن العمل في هذا الاتجاه ينبغي أن يركّز على معالجة المشكلات التاريخية القديمة التي ما تزال مستمرة ومهيمنة رغم فشل رهانها في النهوض بالأمة وفي إقلاعها الحضاري، ورفع التحديات الراهنة التي تعكسها الأحداث والتطورات المتسارعة في عالمنا العربي بثرواته البشرية وثوراته الشعبية وحراكه في اتجاه كفالة الحرية والحقوق والكرامة وفي أفق تحقيق مجتمع الرفاه، مع التفاعل الإيجابي مع تحديات العولمة والتثاقف وإرادات الهيمنة والتوسّع لدى بعض النماذج على حساب نماذج أخرى.

ذلك أن من الأولويات في عصر العولمة والفضاءات المفتوحة دراسة سبل تجديد الخطاب الإسلامي في نظرته إلى الآخر الحضاري وفي استيعابه لواقع المسلمين في الغرب وفهمه لخصوصيتهم ورصده لتطلعاتهم، بما يبعث فيه روح الحيوية والمواكبة، ويؤهله للتأثير والتأطير والتفاعل والتدافع، ويكسبه مناعة ضد الاستلاب من طرف القوى المهيمنة في ساحة التدافع الكوني، عبر تعزيز الأطر المرجعية القادرة

على توحيد الرؤى الإسلامية للغرب وتنظيم خلافاتها وجعلها تنفتح على السياقات العالمية والكونية وتتواصل مع الخبرات البشرية المختلفة، بما يتماشى مع عالمية الكتاب التي تستوجب بالضرورة عالمية وإنسانية الخطاب.

ولا شك في أن فرصة تجاوز أزمة الخطاب الإسلامي في الغرب تكمن في انتظامه وارتباطه من جديد بأصوله الكلية المؤسسة في بعدها الإنساني والكوني وليس بحسب فهمه الضيق لها. وبتعبير آخر ارتباط الخطاب الإسلامي بمنهج هذه الأصول ومقتضياتها وليس برغباته وميولاته، مع الإدراك الواعي لواقع المسلمين في الغرب وخصوصياتهم وتطلعاتهم ومواطنتهم الأوروبية التي لا ينبغي للخطاب الإسلامي المعاصر أن يجعلها متناقضة مع معتقدهم الديني وانتمائهم الحضاري.

وغني عن القول إن هذه الأصول في بعدها التوحيدي المعرفي خصوصاً، تؤسّس في هذا الخطاب ذاته المستقلة التي لا ترتهن لماض غابر ولا حاضر مغاير. وفي بعدها الكوني الإنساني، تؤسس فيه ذاته المنفتحة والمتكاملة مع غيرها، المنخرطة في ساحات التدافع والتعارف الكوني تسديداً وترشيداً، بما تمتلك من منظومات القيم والتربية والسلوك ومقوّمات البناء الحضاري وإمكانات التواصل والتفاعل وتعزيز المشترك الإنساني.

إن درجة التراجع والنكوص واضحة وجلية في كثير من ألوان الخطاب الإسلامي والعربي المعاصر منذ ما يسمى بعصر النهضة العربي. ولا شك أن تجاوز هذا الواقع يتأتى بتقديم الأجوبة الشافية عن الأسئلة الكبرى المطروحة في ساحة التدافع الحضاري، وفي مقدمتها أسئلة البناء الحضاري وأسئلة التواصل مع الغير، فذلك وحده ما يجعل الأمة قادرة على الرقي بخطابها والتواصل مع غيرها. مع التأكيد على أن التواصل مع الغير لا يمكن أن يكون المدخل إليه المدخل الخلافي وإنما المدخل الائتلافي. فدائرة المشترك على كل المستويات مقدمة على غيرها في هذا الباب، وهي كثيرة جداً قد تغني عن البحث الخلافي، وإن كان لا بد من هذا الأخير ففي سياق تعميق الائتلاف والتواصل لا الاختلاف والتفاصل.